قصة : نجيب العسال

اللص والجارس

متولى

راحت عينا الأم ترقب الابنة فى امعان وانتظار وضيق ·· لقد مرت أكثر من عشرين دقيقة ، والابنة فى مكانها أمام المرآة ·· انجزت خلالها أكثر من عمل من أعمال البيت وخطت الى ابنتها أكثر من ثلاث مرات تستحثها فى هدوء تارة وفى ثورة تارة أخرى لكى تفرغ من ارتداء ثيابها والابنة لا يبدو عليها الاستجابة لرجائها ·

أخيرا اطمأنت الفتاة المقبلة على دور الشباب ، التى لم تتجاوز بعد عامها الرابع عشر ـ على ان مظهرها العام قد أصبح فى مستوى يؤكد شعورها بجمالها وأناقتها واستجابت لرجاء الأم التى بدأ ضيقها يتلاشى وهى ترقبها فى هدوء وحنان ·· فقد توافد على خيال الأم صورة مماثلة ·· صورتها وهى فى الرابعة عشر من عمرها وفى مناسبة مثل تلك تماما التى تستحث ابنتها على الاسراع فى انجازها ·

أسرعت الابنة وراء الخادم كى تشرف بنفسها على انضاج الكعك الذى قضت الأم ذهاء يومها فى عمله استعدادا للعيد القادم وكانت تخشى عليه من استهتار الخباز ·· سارت منى سابحة فى خطواتها الفرحة ، وحمرة النشوة تكاد ترقص على وجهها الصبوح وأصابعها تعبث فى خيلاء لتلمس شعرها الفاحم لمسات أخيرة سعيدة ·

أوصدت الأم الباب وصورة ابنتها لم تفارق خيالها ·· انها أمامها على الجدران وعلى قطع الأثاث وفى كل جوها المحيط وقد انبرى ذهنها فى نشاط فلم يكف عن القاء السؤال تلو الآخر يفسر كل هذا الاهتمام فى التأنق من جانب الشابة الصغيرة وتركت الأم الاجابة على أسئلتها جانبا وراحت تعمل فى همة كى تزيل الآثار التى أطاحت بنظام بيتها من اجراء عمل الكعك ·

كانت خديجة فى الثانية والثلاثين من عمرها سمراء ممتلئة الجسم ذات ملامح واضحة صريحة صلبة الى حد كبير وان كانت نظرات عينيها الواسعتين العسليتين اللامعتين بجاذبية شديدة تؤكد أنوراء صلابتها تلك نفسا حساسة تفيض أنوثة وذكاء وتوثبا مطمورا ـ هى تعلم جيدا أنه يجب أن يظل مطمورا ·· كان الناظر اليها لا يعطيها سنا أقل من الأربعين عاما وذلك لمظهرها الوقور وجديتها التى تتمسك بها حتى أضحت وكأنها صفة أصيلة فى ذاتها ·· كيف لا تتمسك بها وقد مر على زواجها أكثر من خمسة عشر عاما وزوجها السيد مصطفى السيد رجل مهاب الطلعة طويل القامة عريضها لايتكلم الا بحساب وتؤده

ولا يجالس أحد الا ويذكر ماضيه الحافل بالذكريات التى تؤكد بلوغه الخمسين عاما منذ وقت طويل والتى يردد فيها دائما بأنه قد عاش كل لحظات شبابه وأنه قد شبع لهوا ومرحا واكتفى منذ زواجه بالحياة الهادئة الوقورة ·· فكيف تترك خديجة نفسها لتبدو أمام الناس أقل وقارا وجدية عن زوجها ·· لقد آلت على نفسها منذ تزوجته أن تطيعه فى كل ما يطلبه منها كما قالت لها أمها يوم زواجها حتى تغدو زوجة صالحة كما تقول التعاليم تماما ورأت هى ألا تطيعه فحسب بل يجب أن تكون كشخصه أيضا ·

ظلت خديجة تروح وتغدو فى نشاط لا يتفق أبدا مع بدانتها ·· نشاط يدهش دائما كل من يراها وهى تعمل فى بيتها ولم يدر أحد أنه نابع من ذاتها المتوثبة المطمورة ·· توقفت قدماها لحظات خاطفة عدة مرات بدون شعور أمام المرآة التى كانت تقف أمامها ابنتها منذ برهة وفى ذهنها شىء لم تتبينه جيدا ولم تستطع الامساك به ·· شىء مبهم كالضباب يلح عليها أن تقف أمام المرآة لكنها لا تستجيب له فى غمرة انشغالها لانجاز ما تبقى أمامها من أعمال ·

أخيرا لم تجد بدا من الثبات أمام المرآة دفعة واحدة وفى عزم أكيد ترى مايشدها اليها واقتربت منها قليلا وهى تتطلع بوجهها الذى كان يطل عليها ساكن الملامح تماما واتسعت عيناها أكثر حتى بان بياضهما وكأنه أضحى أكبر قليلا عما كان عليه ·· كانت المرآة التى تعلو الحوض الكائن فى بداية الردهة الموصلة الى دورة المياه ولذلك لم تر خديجة جسدها المُتلىء ·· لم تر الا خدودها المكتنزة وشفتيها البيضاوين حتى أنفها لم تكن تظن أبدا أنه سيبدو هكذا فى يوم من الأيام ·· قد انتفخ حتى كاد يفقد معالمه وامتد اصبعها فى خوف الى بشرة وجهها ·· انها ما زالت ناعمة وملتهبة ·· يسرى فيها اللون الحونى ·· وفجأة سرى من خيالها وجه آخر تخيلته وقد التصق بجانب الوجه المكتنز على صفحة المرآة ·· وجه نحيل ·· رشيق أسمر اللون يعلوه جبين عريض · طالما قيل لها أنه دليل الذكاء ، وابتسمت خديجة ساخرة ·· الذكاء ·· أين هو الذكاء ·· ألو كانت ذكية حقا كانت قد تركت نفسها تتبدل هكذا فى نحو خمسة عشر عاما ·· وابتسمت مرة أخرى فى فخر ·· ولكن أليس من الذكاء أن جعلت نفسها وقد أصبحت صورة أخرى من زوجها حتى تشاركه حياته فعلا ·· وتمعنت فى الصورة التى خرجت من خيالها ·· ياالهاتين العينين النجلاوين وتلك الابتسامة اللامعة المتألقة واتسعت حدقتاها أكثر ثم حاولت الابتسام لترى هل ما زالت ابتسامتها على نصيب من التألق كما كانت ولم تطاوعها شفتاها قبل أن تتجه بنظرتها الى هناك الى حجرة زوجها السيد مصطفى السيد ·· انها دائما قبل أن تختلى بنفسها لا بد لها من القاء نظرة على حجرته وعلى سريره بالذات لترى ان كان مستغرقا فى النوم كعادته دائما كلما كان فى المنزل أو مضجعا فقط بجسده الضخم ويبدو كالنائم لكنه متنبه تماما لكل حركة تأتى بها وأجفلت راجعة ولكن بعد أن ألقت بنظرتها الخاطفة على السرير الخالى ·· انها تعلم جيدا أنه ليس بالبيت فهو الآن بالمسجد الحسينى كعادته كل عام فى الأيام الأخيرة من شهر رمضان وابنهما

الوحيد أحمد البالغ من العمر اثنى عشر عاما ٠٠ انه معه أيضا لكنها أبدا لا تستطيع أن تنطلق بأفكارها قبل أن تخطف نظرة سريعة على السرير وان كان خاليا ٠

أحست خديجة براحة كبيرة وتنهدت وهى تزفر أنفاسها فى مرآتها وتبتسم فى أسى ٠٠ وتحنو على الوجه الرشيق حتى يعود أمامها مرة أخرى ٠٠ وانتشر سريعا وهو يبتسم مواسيا٠٠ وانفرجت شفتا خديجة لتقارن بين الابتسامتين ثم تنهدت فى شىء من الرضا ٠٠ أن تألق ٠٠ ولمعت عيناها فجأة ٠٠ وأحست بالبركان الذى يثور دائمافى صدرها وتخمده فى الحال وتنهدت ٠٠ ما أحوجها الآن الىهدوء روحها ٠٠سرعان ماانتشرت صورة أخرى تشاركها مرآتها ٠٠ انها الصغيرة منى فى ثيابها الأخيرة ـ أمام المرآة قبل خروجها منذ لحظات ، واستعادت لمحاتها تماما وصعدت الأسئلة الى ذهنها مرة أخرى لكنها لم تجبها بصورة خديجة المكتنزة ذات الاثنين والثلاثين عاما والتى تبدو فى الأربعين بل أجابتها بخديجة الناحلة الرشيقة ذات الابتسامة المتألقة والتى لا تعدو الخامسة عشر من عمرها ٠

وعلى المرآة تألق وجه آخر كان قد اندثر طويلا الا من مرات معدودة تعاودها من الحين والآخر ، وخاصة فى مثل تلك الأيام من كل عام ٠ لكنه اليوم بدأ قاسيا فى ظهوره ، المقترن بفتاتها الوحيدة منى السمراء الندية ذات العينين الخضراوين والابتسامة المتألقة وابتسمت خديجة فى راحة ، ان منى تتميز عنها بشىء مهم أصيل فى النفس وهو العناد المقرون بالثقة فى النفس ولكن ترى لوتعرضت منى لظروف مثل ظروفها هل تستطيع الاستفادة من هذا العناد وتلك الثقة بالنفس ؟ وجرت خديجة أقدامها من أمام المرآة لتذهب الى ركن مظلم فى حجرة الصالون وفى الهدوء الحالم المخيم على بيتها الخالىجلست فى أمان ، وهى تشد من خيالها الوجه الآخر الذى اندثر طويلا وكان يعاودها فى مثل تلك الأيام من كل عام ٠٠ حسين ٠٠

لم يكن حسين وسيما ولا عملاقا مهيبا لكنه كان فتى أسمر اللون ٠٠ حسن المظهر وان كان مرهف الحس الى درجة كبيرة وأحست خديجة بروحها تفيض حنانا وهى تتذكر طفولتها وأيام صباها المبكر وكيف التقت مشاعرها بمشاعر حسين ابن الجيران منذ الطفولة وذاك الصبا المبكر لكنهما لم يدريا شيئا عن هذه المشاعر الا أنها كانت تلجأ اليه دائما عندما يضيق أحد من الصبية الخناق عليها أو تختطف احداهن من يدها لعبة وكان يحميها دائما ويقف بجانبها ٠٠٠ ثم بعد أن شبا عن الصبا وصارا يشعران بالعيون من حولهما ٠٠ وهىمشاعرهما التى كانت تهيىء لهما هذا الخوف ٠٠ أصبحا يحرصا على أن يختطفا نظرة عابرة أثناء ذهابهما الى المدرسة ولا شىء غير هذا ٠٠ أما الأيام التى كانا ينتظرها دائما بفارغ الصبر فهى تلك الايام التى تسبق عيد الفطر عندما تجمعهما ساحة المخبز المزدحمة بصاجات الكعك ورغبة أمهاتهما على أن يشرف كل منهما على نضج الكعك ٠٠ وهزت خديجة رأسها واعتدلت فى جلستها وهى تحس بالسعادة التى كانت تحسها فى تلك الليالى البعيدة من خلال النظرات المتبادلة بينها وبين حسين والحنان المتدفق الذى كان يلفهما

٠٠ وزحف الأيام والليالى حتى كانت فى الخامسة عشر وكان حسين فى الثامنة عشر ٠٠ وفى ليلة وهما فى هذا العمر حدثها حسين لأول مرة عن أمله عندما يجتاز امتحان الشهادة الثانوية وبعد أن يلتحق بالجامعة وكانت تطير فرحا وهى تتخيل تحقيق هذا الأمل لعلهما معا ٠٠ وحدثها طويلا سيجعلها تواصل دراستها حتى نهاية المرحلة الجامعية سيكون لهما بيت صغير سيخرجان دائما معا يمرحان ويلهوان ٠ ستكون لهما ابنة واحدة ٠٠ لا بل ابن وابنة ٠ وعاشا فى هذا الحلم باقى الليل ٠٠

واستعادت خديجة تلك الليلة بكل ما حدث فيها منذ بدأت أقدامها تخطو وراء خادميهما المحلان بصاجات الكعك فى طريق العودة وكل ما حولها هادىء ساكن فالساعة أشرفت على الثانية صباحا وقاربت ليالى رمضان على انتهاء السهر ٠٠ فالكل يستعد للعيد القادم وخلت الطرق الا من عدد قليل من الناس وأحست خديجة وكأن الفضاء لها وحدها هى وحسين فى تلك الليلة ـ ويسرى فى حنايا نفسها فهى لم تشعر بدفىء الصقيع فى حياتها كما شعرت به ليلتها ولم تر أحلى من ظلامها ولم تسمع ألحانا مثل وقع خطواتهما٠٠٠ ضاعت الكلمات بين شفتيهما ٠٠ لم يتبادلا ولا كلمة واحدة طوال الطريق لكنهما أحسا وقد همسا بكل حديث الزمان وانهما قد عاشا منذ بداية الحياة وستظل حياتهما الى مالا نهاية وفجأة وجدا نفسيهما أمام باب منزل خديجة٠ انتهى الطريق سريعا وتوقفت أقدامهما ثم أحست بيده تبحث عن يدها كى يتمنى لها مساء سعيدا فى تلك اللحظة دوى صوت غليظ ٠٠ خشن يصرخ فى ذعر واستنجاد ٠٠٠

وقد بدأ فى هذا الظلام الحالك وكأنه ينذر بنهاية الحياة ٠

اللص ٠٠ اللص ٠٠ أمسك اللص ٠ وافترقا فى الحال كل فى جانب من الباب الكبير وانتحى الخادمان ٠٠ جانبى الجدران فى اللحظة التى اندفع فيها رجل طويل عريض فى جلباب أبيض يهرول مسرعا وهو يردد صارخا ٠٠

اللص٠٠ اللص٠٠ امسك٠٠ اللص٠

ثم بدأ الجسم المندفع يتريث قليلا وهو يتلفت يمينا ويسارا ثم توقفت أقدامه فى الوقت الذى تجمع فيه عدد قليل من الناس والكل يؤكد انه لم ير أحدا يجرى هنا أو هناك والرجل يؤكد انه قد سمع حركة غريبة مصدرها احدى شرفات مسكنه القريب من أرض الشارع ٠

لم يعن خديجة وجود اللص أو عدم وجوده ٠٠ كل ما أحست به أسف كبير ملأ نفسها بعد أن ذهبت الضجة وذهب عنها حسين فى سكون وهو منكس الرأس وجرت أقدامها وراء خادمتها فى الوقت الذى اندفع فيه صاحب الصوت الخشن الغليظ الذى كان يصرخ منذ لحظات عائدا الى البيت ٠٠ انه الساكن الجديد الذى نقل حديثا من احدى بلاد الوجه البحرى جاء كمعاون لمكتب الصحة القريب منهم كانت المرة الأولى التى تراه فيها واستدار صاعدا الدرجات القليلة الموصلة الى الدور الذى يسكنه ثم أسرع باضاءة المصباح الكهربائى الذى يعلو باب مسكنه لينير باقى الدرجات أمامها ونظرت اليه وهى تشكره فى حياء ٠٠ كان رجلا طويل القامة عريضها أبيض البشرة وسيما مهيبا وقورا٠٠ فى نحو الاربعين من عمره وقرأت اللوحة

النحاسية على باب الشـــقة ·· السيد مصطفى السيد لحظتها لم تتساءل لماذا لا تمعن فيها جيدا كان كل ما يعنيها فى تلك اللحظة أن تصعد فورا الى مسكنها حتى تؤوب الى فراشهـــا سريعـــا كى تستعيد كلما ما همس به حسين اليهـــا وقطعه هذا الرجل بصياحه المفاجىء ·· وفى سكون امتـــدت يدها اليسرى الى

يدها اليمنى تغطيهـــا فى حنان وكادت تهمس لنفسها بمســـاء سعيد وهى ترى الدرجات وقد استمالت كلها الى صورة واحدة · حسين فى كامل حنانه وكمـــا لم تره أبدا من قبل ·· الآن فقط عرفت خديجة لمـــاذا أحيانا كثـــيرة تؤتى هذه الحركة ولمـــاذا ظلت وقتا طويلا كلما تطلعت الى زوجها السيد مصطفى السيد اقترنت طلعته المهيبة فى عينيها بصوته الخشن الغليظ وهو يرن فى أذنيها بتلك

الصيحة المفاجأة فى تلك الليلة البعيدة **اللص .. اللص امسك اللص .**

عادت خديجة الى نفسهـــا ووجدت أقدامها مرة أخرى لتجول داخل شقتها لترى ماذا ينقصها وتوقفت أقدامها هذه المرة أمام المرآة الكبيرة ، مرآة الدولاب وتمعنت فى هيئتها طويلا انها الآن وبعد خمســـة عشرة عاما أصبحت لا تختلف كثيرا عن زوجهـــا انهـــا عرفت كيف تشـــاركه حياته وعمره أيضـــا .. أما خديجة الصغيرة . النحيلة الرشيقة . وامتلأت الجدران أمامها بصورة أخرى. منى الصـــغيرة ذات العينين الخضراوين والعناد المقرون بالثقة بالنفس بنت الجيل الذى يعرف تماما موضع اقدامه وظروفه تساعده ومع ذلك من يدرى ونظرت فى ساعة الحائط .. انها تشير الى الثانية عشر ومعناه أن منى فى طـريق العودة الى البيت واستعادت صورتها وهى تعنى بأناقتها قبل خروجهـــا الى المخبز ولم تنتظر خديجة طويلا .. ارتدت ثيابهـــا على عجل دون أن يجول بخلدها أن ميعاد أوبة زوجها أزف ولم تفكر ماذا سيكون جوابها لو قابلها فى الطريق كل ما كان يملك عليها تفكيرها الآن أن تسرع لتعود بابنتها لتكون بجانبها فى طريق العودة .. انها لا تدرى خديجة بالضبط ماهو الدافع لكل هذا .. لم تستطع التحديد لابد أن تكون بجانبها وكفى ... ربما تريد أن تستعيد تلك اللحظـــات التى فقدتها من زمن بعيد لاتستطيع التحديد أيضا ومع ذلك كانت ينتشر فى خيالها شارع عريض مظلم وأقدام شابة تخطو فى أنغام وراء خادمين يحملان صاجات الكعك وأنفاس بكر تضىء كل ما حولها ومفاجأة واضحة ربما تحدث فى الطريق.

ومن بعيد لمحـت خديجـــة الموكب يتوسط الشارع المظلم العريض.. تماما كما هو موجود فى ذهنها وكما عاشته من قبل وهزتهـــا رجفة سريعة وأحست وهى تحاول السيطرة على خفقان نفسها وكان شـــعاعا من الحنـــان يتسرب من روحهـــا ليطوق الصغيرين السعيدين ـ فجأة وجدت منى أمها أمام عينها لا تبعد عنهـــا غير خطوات قليـــلة .. بوغتت القلوب الفتيـــة وتوقفت الاقدام الشابة لتسأل منى أمها فى لهفة وخوف ..

هل حدث شىء .. ؟

وتكلمت خديجة ذات الطلعـــة المهيبة زوجة السيد مصطفى السيد

ما سبب كل هذا التأخير ..؟

وصعدت فى الحـــال موجـــة الحدة والتمرد الى نبرات منى وهى تجيب أمها فى اقتضاب .

ـ كان الزحام شديدا .

وأشارت الأم بطرف ذقنها وصوتها يخرج حازما جادا .

ومن هذا ... ؟

وفى ثبـــات وصلابة وبكل ملامحها العنيدة الواثقة أجابت منى ..

انه هشام .. جارنا الجديد

وصعدت نظرات الام القامة الفارعة انه يختلف عن حسين فى طول القـــامة وأيضـــا فى الملامح وأيضا فى العينين الواسعتين والشـــفتين الدقيقتين اللتـــين يضغطهما فى حدة مما يؤكد أنه انسان صلب الارادة وانه لن يتنازل عن ابنتها بسهولة ان هذه الخصلة من الشعر الاسود الناعم النافر الذى يغطى طرفا من جبهته

العريضة المرتفعة فى شموخ يؤكد ذلك ·· وحاولت التسلط على ابنتها ولكن منى أشاحت بوجهها بعيدا عن أمها فى عزة وتماسك رغم الدموع التى كانت تطفر من عينيها الخضراوين ·· غيظا وألما ·· وتحرك الموكب مرة أخرى فى الظلام ·· الخادمين أمامها وعلى رأسيهما صاجات الكعك يسيران فى امتثال وطاعة والأم فى خطوات جادة وملامح حادة وقامة منتصبة ونظراتها القوية مسلطة على الطريق فى كبرياء أما فى الداخل فكانت هناك انسانة أخرى هى خديجة الصغيرة النحيلة ذات الخمسة عشر ربيعا وقد تصورت نفسها تتحول فجأة الى ملاك بأجنحة يرفرف على القلبين الشابين ليحرس لهما الطريق المظلم ويحميهما من مفاجآته وكانت تهمس لنفسها بين فينة وأخرى ··· حمدا لله أن الجار الجديد هو هشام ·· فى صلابته تلك ·

وأما منى الصغيرة فكانت كقطعة من اللهيب تكاد تشق أرض الشارع بأقدامها الثائرة وقد راحت تنظر الى أمها من حين الى آخر نظرات حانقة ساخطة وهى تراها تسير بجانبها وكأنها قد اكتست معطفا من الصوف الأصفر الخشن وطربوشا طويلا بنى اللون عليه من الأمام لوحة حمراء مرقعة مستديرة مرقعة وقد ثبت لها فجأة شارب غزير كثيف له أطراف مرتفعة وعلى كتفيها تربط بندقية ترتطم بالارض مع وقع أقدامها التى حولت هدوء الليل الى صخب مقيت ···

أما هشام الفتى الذى لم يتجاوز بعد عامه السادس عشر ·· الشاب الصغير الذى خفق قلبه لأول مرة فى عنف وجنون فقد أحس بقامته التى كان يفتخر دائما ببنائها المتين وقد اهتزت تماما أمام هذا الهجوم السريع على لحظاته التى ظن أن لأحد يملكها غيره ·· كانت عيناه مسلطة على ظهر حبيبته ثم انتقلت الى ظهر أمها ورآها فى الحال وقد تحول معطفها الأسود الى عباءة طويلة سوداء ود خيل له أن رأسها مغطى بقناع اسود أيضا وانها لاتختلف اطلاقا عن أحد أعضاء منظمة (الكوكس) وأراد أن يبلغ ابنتها هذا ·· لابد من ابداء رأيه وفى الحال ·· ماسبيل الى ذلك ·· كيف يهمس اليها بأن أمها لاتختلف أبدا عن أى قرصان من قراصنة البحار كانت يداه داخل جيب سترته وأصابع يده اليمنى تعبث بقطعة الطباشير التى كان يكتب اسمه بها على صاجات الكعك كى يعرفها عن غيرها ·· وأوحت اليه قطعة الطباشير بالفكرة عمل ذهنه البالغ من العمر ستة عشر عاما على تنفيذها فى الحال كى يبلغ حبيبته رأيه فى أمها ·· أسرع الفتى فى خطواته حتى تجاوز الجميع ثم أسرع أكثر حتى سبقهم الى باب البيت وعلى الجدران امتد اصبعه بقطعة الطباشير ليرسم فى حدة رغم الراحة التى بدأت تسرى فى نفسه ·· خطوطا سريعة كونت فى الحال صورة **جمجمة تعلوها عظمتان متقابلتان وفوقهما خط هذه الكلمات · القرصانة السوداء** ·· ورفع يده بالمصباح الكهربائى الصغير ليسلطه على الجدران ، قد رأت الأم كل هذا لكنها لم تفطن الى عناه أما منى فقد عرفت ماذا يقصد وهزت له رأسها وهى توافقه وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة رقيقة ·